هاجس الفيلسوف

شاعر الفلسفة وفيلسوف الشعراء

أبو العـــــلاء

— ١ —

بقلم : الاستاذ شمس الدين الخطيب

المقدمة

ان شخصية كشخصية أبي العلاء المعري التي اشغلت افكار العلماء واقلام الكتاب واشعار الادباء وآراء النقاد بما حوته من مذاهب قويمة وافكار ناضجة وآراء سديدة وعقلية راقية وحكمة بالغة تستهوي النفوس وتسحر الالباب وتترك العقول حسيرة عن ادراك كنهها أو معرفة اسرارها لتستوقف قلم الكاتب حائراً حولها تغريه عظمة المبحوث عنه وتخونه لكنة الافصاح بسره وليس مما يثبته العقل ان يكتب كاتب عن حياة شاعر أو كاتب أو فيلسوف أو من هو جماع هذه الصفات ما لم يقف على كنه حقيقة الرجل وعواطفه وميوله وآرائه واهوائه والبيئة التي نشأ فيها والعوامل التي اثرت فيه من محيط وطبيعة ومزاج وثقافة حتى تركته ينبغ من بين اخوانه ويسود على اقرانه ذلك بأن يدرس عملية المزج التي بتركيبها من عناصر مختلفة عادت الى هذا النتاج الفذ واللغز العجيب في الحياة الفكرية والنفسية وأنى لي بذاك (وأين الثريا من يد المتناول) . والمعري اكبر من أن ينعته قلم الكاتبين أو تصفه ريشة الواصفين فمن العسير علي أن اشرح حياة المعري في هذه الوريقات وهو الفيلسوف الذي الفت عنه الكتب ، والشاعر الذي صنفت فيه المجلدات ؛ وتناوله الكتاب بالتحليل ، والنقاد بالتمحيص ، والشعراء بالتعظيم .

ولعمري ان رسالة من رسالات المعري لو شرحها شارح وعلق عليها لصارت كتبا ومجلدات فكيف اقدر على الاحاطة بهذا الرجل العجيب والنابغة الفذ . ولكن لا يترك الميسور بالمعسور وما لا يدرك كله لا يترك جله .

ولئن قال المعري :

من الناس من لفظه لؤلؤ يبادره اللقط إذ يلفظ
وبعضهم قوله كالحصى يقال فيلقى ولا يحفظ

فان لؤلؤاً فاه به لجديرا بالالتقاط ، وان عقوداً نظمها لثمينة بالحفظ ، فهو الناطق عن در يشبه المنحدر من بطون الغمام ، والناظم لما لم يهتد له الخليل ولا النظام .

ولئن قيل :

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

فان المعري هو ذلك الواحد الذي جمع الله فيه العالم واحرى به أن يقال فيه :

وتزعم انك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

فاجدر به شاعراً توليه العناية والدرس ؛ وتمنحه التمحيص والبحث ؛ علنا نأخذ منه بقبس أو نهتدي به الى سنن من الحقيقة .

وها أنا ذا قائل كلمة موجزة عن حياته مع شرح مختصر للبيئة التي ضمته ، والعصر الذي عاش فيه ، والعوامل التي اثرت فيه مع شرح لبعض آرائه ومعتقداته وخاتمة في ايمانه ومختارات اشعاره على قدر ما تؤاتيني الاستطاعة والاطلاع .

الحالة السياسية في عصره .

عاش ابو العلاء في أواخر الدولة العباسية في عصر الديلم بين سنتي ٣٦٣—٤٤٩ للهجرة وهذه الحقبة من الزمن هي عصر ملوك الطوائف ، فدولة الديلم والعلوية بطبرستان ، والسامانية وراء النهر ، ودولة آل سبكتكين في الهند والافغان ، والدولة الحمدانية في الجزيرة ، والدولة الاخشيدية في مصر ، والفاطمية في افريقية ، وهذا الانقسام أثر في حياة ابي العلاء اسوأ الاثر إذ رأى المسلمين ولا علم يظلهم ، ولا دولة تجمعهم ، ومنه يتضح ان الدولة العباسية كانت على شفا جرف هار تتعاورها أيدي الاعاجم وتتلاعب بها شخصيات الرقيق والاماء ، فكان جديراً بالاريب أن يتمثل بقول القائل :

لقد هزلت حتى بدا من هزالها كلاها وحتى سامها كل مفلس

أو بقول القائل :

كنت مشغوفا بكم مذ كنتم شجراً لا يبلغ الطير ذراها

فتناهى الأمر حتى اصبحت همما يطمع فيها من رآها

ذلك هو عصر الضعف السياسي والانحطاط الأخلاقي عصر الحجر على الملوك والخلفاء ، وكان المعري قد عاصر المرتضي بالله أحد الخلفاء العباسيين بيد انه لم يقم في بغداد بل سكن معرة النعمان موطنه ومسقط رأسه .

وقد (١) اتصلت حياته بثلاث من هذه الدول ، وهي الديلم ببغداد اتصل بها سنة أو بعض سنة لما رحل الى العراق والدولة الحمدانية في حلب وقد عاش في ظلالها منذ ولد حتى سقطت على أيدي الفاطميين . واتصل ايضا بالدولة الفاطمية التي اصبحت خلفاً للحمدانية .

وقد كانت الدولة الحمدانية دولة الادب الوحيدة بفضل ملكها — سيف الدولة الحمداني — الذي ترك حلب تزخر بالادباء والشعراء بما اسبغ عليهم من النعم وما أسبل عليهم من وابل الخيرات ، فشب ابو العلاء على نعمة في الادب لم يسبق لها مثيل ، الا ان حفيد سيف الدولة أبا الفضائل الذي سقطت الدولة على يده كان قد استصرخ الروم على اعدائه لردهم عنه فردهم ، الا ان الروم احتلوا بلاده فكان كالمستجير من الرمضاء بالنار . تخلص من خصيم فاستعبده عدو ، وذهبت دولته ضياعا لهم فكان جزاء فاعلها الندامة ، حيث هدموا واحرقوا ونهبوا وسبوا وانصرفوا وافرين ما نال رجلا منهم كلم ولا اريق لهم دم . كل ذلك كان بمنظر من ابي العلاء ومسمع .

خلف الدولة الحمدانية دولة بني مرداس في حلب . قال ابن خلدون :

لما ضعف العبيديون بعد المائة الرابعة تطاول العرب في الشام والجزيرة وتساموا الى امتلاك البلاد . فتحالف صالح بن مرداس الكلابي وحسان بن المفرج الطائي وسنان بن عليان على أن يقتسموا البلاد فيما بينهم . فيملك صالح حلب الى عنه ؛ ويملك حسان الرملة الى مصر ، وتكون دمشق واعمالها الى سنان ، وفي ذلك يقول ابو العلاء :

أرى حلباً حازها صالح وجال سنان على جلقا

وحسان في سلفي طيء يصرف من عزة ابلقا

وكانت بين ابي العلاء وصالح هذا حادثة سياسية سنة ٤١٨ هـ ولم يفصل المؤرخون الحادثة . فاما القفطي فقد ذكر ان اهل المعرة عصوا صالحا فحاصرهم فلما ضيق عليهم شفعوا اليه بأبي العلاء وقبل شفاعته . ولكن لم عصوا ؟ هذا شيء لم يذكره المؤرخون ، والصفدي يقول في الوافي بالوفيات ، ان امرأة من اهل المعرة صاحت بمسجدها الجامع ان صاحب الماخور أراد أن يفضحها وكان مسيحيا فأيقظهم صيحتها فثاروا الى الماخور فهدموا وحرقوا ما فيه من نبيذ وخمر وبلغ الخبر أحد كتّاب صالح فقبض على سبعين من سراة المعرة . قال الصفدي : « ودعا اهل حيالهم في المسجد ثم شفع ابو العلاء الى صالح فقبلت شفاعته » . والراجح ان صالحا حاصر المعرة لشيئين :

أحدهما ما ذكره القفطي ونقله عن اهل المعرة قال : « ان صالحا رمى المعرة بالمنجنيق فهرع اهلها الى ابي العلاء فتوسلوا به الى صالح قال فخرج ابو العلاء يتوكأ على قائد له وقيل لصالح ان باب المدينة قد فتح وخرج منه أعمى يقاد فقال صالح هو ابو العلاء فدعوا القتال لننظر ماذا يريد . قال ودخل ابو العلاء على صالح فاكرمه وشفعه واستنشده فارتجل ابو العلاء أبياتا جاءت في اللزوميات » ووافقه على هذه القضية الذهبي .

وثانيها ان شعر ابي العلاء نفسه يعين هذه المحاصرة . اما سببها فان صالحا لما قبض على سراة المعرة عصاه اهلها فحاصرها لفتحها .

قال الدكتور طه حسين في ذكراه هناك اعتراضان لقولنا باستقلال آل مرداس .

أ — ان ماروه مترجموا ابي العلاء وفيهم ياقوت والصفدي ان المستنصر العباسي وهب لأبي العلاء ما في خزائن المعرة من المال فرفضه ومن الواضح ان الأيام التي قضاها ابو العلاء في حياة المستنصر كانت في ظل بني مرداس فكيف يبذل المستنصر مالاً لا يملكه .

الجواب : اننا نشك في صحة هذا الخبر لأنه روي عن أحد اقرباء ابي العلاء بمعرض الدفاع عنه وهبه صحيحا فقد كان المستنصر ملك حلب على يد الدزبري من سنة ٤٢٩ هـ — ٤٣٣ هـ فان كان صحيحا فانه حدث في تلك الايام .

(١) راجع كتاب ذكرى ابي العلاء للدكتور طه حسين — الطبعة الثانية — صفحة (٤١)